الشيخ صفوان أبوالفتح

«كان أهم من تتلمذنا على يديه الشيخ صفوان أبوالفتح. كان شيخا أزهريا عظيما وكنا نسميه "مولانا" وكان يكتب كل منشورات الحزب، وهو الذى صاغ برنامجه وكان يشرح الاشتراكية وكأن النبى محمد قال بها. كان ناراً حمراء متوهجة دوماً».
(من أقوال عبد الرحمن فضل فى حوارى معه)

ومنذ تأسس الحزب الاشتراكى كان الشيخ صفوان أبوالفتح هو أكبر الأعضاء سناً (ولد عام ١٨٨٢ فى قرية السنيطة مركز أجا)، وعندما سجن قادة الحزب كان هو أيضاً الأكبر سناً (٤٢ سنة)، وقد حاولت كثيراً الإمساك بخيط معلومات عن «مولانا» حتى التقيت بأخته فاطمة.

وتحكى فاطمة: «أبونا كان غنيا. وكان فلاحا متسلطا، ومن ثروته استمد المزيد من التسلط على أبنائه. هو لم يتعلم ورفض أن يتعلم أى من أبنائه، فالأرض كافية والرزق وفير فلا حاجة لأن يتعلم الأولاد. سنة أو سنتان فى الكتاب ثم إلى الحقل. صفوان تعلق بالكتاب وبالعلم وتعلق أكثر بحفظ القرآن الكريم». لكن الأب يرفض لأى من أبنائه أى علم حتى حفظ القرآن. وعندما علم الأب برغبة الابن ثار فى وجه الجميع وقال: «إلى الغيط يا ولد» لكن الابن يذهب إلى الغيط صباحاً ويحفظ القرآن سراً فى المساء، حتى اقترب من سن الخامسة عشرة، فاستجمع كل شغفه وألقى نظرة وداع على الأم والإخوة والقرية. وهرب، وفى رحاب المعهد الأحمدى بطنطا استقر به المقام مجاوراً يعيش على الجراية، ويقضى كل أيامه ولياليه فى حفظ القرآن والحديث والفقه. والأب العنيد يتصادم مع إرادة الولد العنيد. وكانت قطيعة دائمة. وحرمه الأب من الميراث. ولم يأبه صفوان؛ فيكفيه ميراث العلم. ومن المعهد الأحمدى إلى الأزهر ليتخرج مدرساً للغة الغربية فى مدرسة سعيد باشا بالإسكندرية ثم مدرسة العروة الوثقى.

ولا نملك خيطا يكشف لنا كيف اقترب المدرس المهيب من الاشتراكية، لكنه كان من مؤسسى الحزب الاشتراكى واستطاع أن يصوغ للحزب فكراً ماركسياً مطعماً بالرؤية الدينية المستنيرة، وكانت محاضراته للرفاق مزودة على الدوام بآيات قرآنية وأحاديث نبوية. وكان «مولانا» عضوا فى أول لجنة مركزية للحزب.

لكن الغريب فى الأمر أن بعض إخوته الذين نالوا نصيبا وافرا من الأرض والثروة ومعها نصيب وافر من الجهل فقدوا ثروتهم ولجأوا إلى الأخ المنبوذ فمد لهم يداً حانية، وفى عام ١٩٢٤ يقبض على جميع القادة ويحل الحزب، وتتحدث حيثيات حكم محكمة الجنايات عن مولانا قائلة: «وحيث إن المتهمين أنطون مارون وحسنى العرابى وصفوان أبوالفتح هم قادة الحزب وأشدهم تحمسا وأكثرهم نشاطا فى بث الدعوة إليه، وهم بذلك أشدهم خطراً بما يستدعى معاملتهم بمنتهى الشدة. وحيث إن المتهم الثالث صفوان أبوالفتح كان يبث أفكاره فى صفوف تلاميذه وكان يملى عليهم أمالى عن الاشتراكية فإنه يتوجب معاملة المتهمين الثلاثة الأول بمقتضى المادة ١٧ من قانون العقوبات» (حيثيات الحكم فى قضية الجناية ٣٦ لسنة ١٩٢٤ جنايات الإسكندرية)، وحكم على المتهمين الثلاثة الأول، ومنهم مولانا، بالسجن ثلاث سنوات قضاها صفوان كاملة.

ويخرج «مولانا» مفصولا من عمله ولا يكون أمامه سوى العمل فى بعض المدارس الخاصة. ولكن الأمن لا يكف عن مطاردته ومطاردة زوجته وأسرتها. وكان الأمن يضغط طوال فترة السجن على الزوجة أن تطلب منه الطلاق لكنها رفضت واستمر الضغط حتى بعد أن خرج من السجن. لكنه صمد. وهى أيضاً صمدت.

ويبقى أن نتأمل قطعة من الأدب السياسى الرفيع الذى مزج بين الماركسية والنكهة المصرية الخالصة فى مقدمة برنامج الحزب الاشتراكى المصرى التى صاغها «مولانا» ونشرت كاملة فى «الأهرام» (٢٨ أغسطس ١٩٢١).

وتقرأ: «فى تلك الآونة التى تعصف فيها النظم الرأسمالية الفردية بحياة بنى الإنسان وأرواحهم وعقولهم وجهودهم، تبث المبادئ الاشتراكية فى الأفئدة المعذبة لإنجاد الإنسانية وإغاثتها من بطش القوى الظالمة، وتحقيق غايات العدالة الطبيعية من تأييد عواطف التآخى والسلام فى المجتمع الإنسانى والقضاء على ظلم المستعمرين المستغلين الذين سلبوا حرية الشعوب والأفراد. وسعوا إلى تحقيق رفاهيتهم بالاضطهاد المريع للأمم والمجتمعات

المستضعفة. وقد امتدت يد الاستعمار والظلم إلى مصر فاستلبت حريتها عملا بسياسة تلك النظم الرأسمالية سعيا إلى استعمار أرزاقها واستغلال جهود بنيها. كذلك تسيطر تلك النظم على المجتمع المصرى سيطرة سحقت معها دولة العمل، وبطش بها رأس المال بطشا شائنا ومرهقا أدى إلى خلق الغنى الفاحش والبأساء البالغة واتساع الهوة بين الرفاهية والفاقة. لذلك كان من الضرورى أن يمتد إلى بلادنا صراع المبادئ الاشتراكية العادلة ضد النظم الرأسمالية، سعياً إلى تخفيف ويلها وظلمها الفادح، وتحقيقاً لتلك الغاية نهض إخوان العمال فى مصر لتأليف الحزب الاشتراكى المصرى.. وهذه هى مبادئه التى سيعمل على تحقيقها».

الله يا «مولانا». ما أجمل هذه القطعة الأدبية.. وما أجملك.